الآداب الصحيحة

مفتاح السعادة والفلاح في العالم

المحطبة التي ارتجلها في المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت تلاها فيها حضرة اسعد افندي داغر في ١٤ يوليو سنة ١٨٩٨

(تابع ما قبلهُ)

اما الجاء فيحصل اما من طريق التخويف والترهيب او من طريق التودد والترغيب

والاولى طريقة اكراهية قوتها الوهم الذي يسود على عواطف من توجه اليهِ فيصير اسير ارادة صاحبها والآلامها الجور والعسف وهذه القوة لا تفعل فعلها الاَّ اذا اصابت جانباً ضعيفاً ينفعل بتأثراتها ومقدار هذا الانفعال يزيد وينقص بقدر قوة العامل وضعف المعمول فاذا صادفت تلك القوة العاملة معمولاً ذا قوة تماثلها تكافأت القوتان ولم يبدُ لفعلها اثر من الرجحان واذا صادفت قوة اعظم منها دانت هي لها وان اصابت اضعف منها بدا اثرها الوهمي بالغلبة ففعل هذه القوة في البشر لا يقع الاَّ على ذلك الجزء الضعيف الساقط الواهن . وكلما قويت مادة البشر الادبية ضعفت آثار تلك القوة ولذا قلَّ ان تجد فيما من اثر بين الجماعات الراقية في الحضارة والمدنية الحقيقية كأن تاثيرها طريدُ المدنية ينقص بزيادتها ويزيد بنقصها يُدبر باقدامها ويُقبلُ باحجامها كالحمة تتقلص امام النور وتتبدَّد كلما بزغت اشعتهُ وبسطت سطوتهُ

والنتيجة من الحقائق التي بسطناها ان تحصيل النفوذ والجاه في هذا الطريق كثير العقبات سريع الزوال محدود وهو ايضاً غير ميسور الاَّ لقليلين على قليلين في احوال مخصوصة فهو ليس بالطريق العام المطروق المفتوح للطالبين الذي نطلب الاهتداء اليهِ في بحثنا هذا

اما تحصيل النفوذ والجاه من طريق التودد والترغيب فلا يكون الاَّ بما يقع من التأثير الادبي على عواطف الناس حتى يجذبوا اليهِ بارادتهم فيستولي اليهِ حبًّا واعجابًا — وكل عظمة مدنية امة عظيمة فيها فعل القوات الادبية وتاثيرها يقوى كل منهما بقوة الآخر ويعتز بعزهِ فلا فرق بينهما مهما عصفت اعواصف وقصفت القواصف وتغيرت الاحوال لانهما منبثقان من مصدر واحد هو الآداب الصحيحة او المدنية الحقيقية والقوات الادبية . وهذه القوات الادبية الصادرة عن مصدر عام ترمي الى غرض عام هو سعادة الجنس البشري فلا خوف عليها من التصادم والتكافؤ لانها كالجيش المنظم المؤلف من قوات كثيرة مختلفة الانواع لكنها تحت راية واحدة ولغرض واحد يسعى اليهِ الكل بقدم واحدة . اما جنود هذه القوات وابطالها فهم

ارافعون لراية الآداب الصحيحة وما استحثها فهي المحبة والسلام واللطف والادب والكمال والشفقة والوداعة والصدق والاستقامة والصبر والعفو وكرم الاخلاق وغيرها من الفضائل يجمعها قوله تعالى "حب قريبك كنفسك" ولا ريب ايها السيدات والسادة ان هذه الاسلحة لا تقف امامها ابدًا قوة من القوات اية كانت بل لها تدين الرقاب الغليظة وتلين القلوب عند الحنيظة فتستسلم لها خاشعة راضية ملقية بين ايديها اسلحة الشر والعدوان تراوح بين رغباتها واشاراتها في كل مكان وزمان

فليس من نفوذ ولا جاه ولا عزة ولا سؤدد ارقى وافوى وامنع واصدع من نفوذ ذي الآداب الصحيحة وجاهه وعزته وسؤدده واذا راجعنا التواريخ رأينا انها هي القوة التي كانت تقوم في ايدي ضعاف قومهم فيهزون بها جبروت العظماء الراسخ ويطأطئون بها رؤوس الجبابرة الشامخة فيجرُّون الجبال الرواسي المثقلات الى ما يريدون ويشتهون بتلك الخيوط الذهبية خيوط الآداب الصحيحة. هي قوة اولئك الافراد من البشر الذين الهمهم الناس في ما مضى فوضعوهم في مصاف الآلهة وعبدوهم بل عبدوا صورهم وتماثيلهم بل شظايا عظامهم وقبور جيفهم بل تراب ارجلهم. هي قوة فلاسفة العصور الخالية وقوتهم اليوم وغدًا. هي قوة الائمة والانبياء في السلف وقوة شرعهم في الخلف. والعالم كلهُ يعظمهم يدين لتلك القوة الادبية الفعَّالة. قوة الفضيلة. قوة الآداب الصحيحة وتقدمها ويسجها ويرضخ لاحكامها ونواهيها هي القوة الحافظة للامة الهيئات الاجتماعية الجامعة لروابط العواطف البشرية. اي جاه واي نفوذ يا سادتي يعلو على هذا الذي تبسطهُ الآداب الصحيحة لطالبهِ ولمقدمهُ ابريزًا خالصًا للراغبين فيه ان "الرجل الحكيم يعز" والحكمة في الامثال هي مخافة الله

"حكيم يتسوَّر مدينة الجبابرة ويسقط قوة معتمدها"

"التابع العدل والرحمة يجد حياةً وحظًّا وكرامةً"

"ببركة المستقيمين تعلو المدينة ومن افواه الاشرار تنهدم"

"في يمينها (اي الحكمة او مخافة الرب) طول ايام وفي يسارها الغنى والمجد"

نعم يا سادتي هذه هي ثمار الآداب الصحيحة: العزة. والقوة. والحياة. والحظ. والكرامة. والبركة. وطول الايام. والغنى. والمجد كما جاء في حكم الامثال. فاسمى سعادة اعظم من هذه واي سرور اسمى من هذا

نعم يا سادتي الآداب الصحيحة طريق السعادة والفلاح في العالم في جميع الاغراض السامية التي يسعى اليها الناس

واذا كان ذلك كذلك فلِمَ يتساءلون قائلين

ايمكن للانسان ان يصير تاجراً ويحب الله وقريبهُ كنفسهِ

ايمكن للانسان ان يصير محامياً ويحب الله وقريبهُ كنفسهِ

ايمكن للانسان ان يصير ميكانيكياً ويحب الله وقريبهُ كنفسهِ

ايمكن للانسان ان يشتغل في انواع الاشغال العالمية ويحب الله وقريبهُ كنفسهِ

نعم يحق لاولئك يا سادتي ان يسألوا هذه الاسئلة ولا تستغربوا قولي هذا بعد ان اجهدت النفس في القول ان الآداب الصحيحة مفتاح السعادة والفلاح في العالم — لا اقول لكم هذا من نظر فلسفي . كلاَّ . وانما اقولهُ من نظر اختباري شخصي كمزارع وتاجر ومحامٍ . الآداب الصحيحة مفتاح السعادة والفلاح في العالم ولكن هذا الطريق هو كطريق جميع الخيرات في العالم كثير الوعور عديد الانجاد والمضبات عزيز الحسك والاشواك كثير التعب والمشاقّ لا يطرقهُ الاَّ الجندي الباسل اخو العزم والصبر ذاك الذي لا يرقب في سيرهِ الاَّ الراية سائرًا في ظلالها مستميتًا في سبيل عزها وجلالها لا تلويهِ عنها عقبة ولا تثنيهِ هضبة لا ترهبهُ العواصف ولا تفزعهُ القواصف يرى الذل في سبيلها عزًّا والموت حياة والشقاء سعادة — نعم ذلك الجندي الباسل المعقود لهُ لواء النصر الراقي صهوة المجد والفخر هو الذي تسهل امامهُ الوعور وتخفض تحت قدميهِ الراسختين رؤوس الهضاب والنجود وتجانب حد يهِ القتور

هو ذاك الذي قال عنهُ الشاعر

اذا همَّ ألقى بين عينيهِ عزمهُ ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا

اذا همَّ لم تردع عزيمةُ همَّهِ ولم يأتِ ما يأتي من الامر هائبا

نعم ايها السادة لابدَّ لادلال الآداب الصحيحة من عزم لا يُفَلُّ ليحفظ ارجلهم من الزلق في مهاوي التجارب الكثيرة التي تلاقي الاديب المجتهد في جميع الاعمال ويحسن بي هنا ان اذكر لكم شيئاً من اختباري الشخصي

خرجتُ من هذه المدرسة راغباً في درس الشريعة فابى اخوتي الاَّ ان نباشر كلنا اعمال زراعتنا وتجارتنا فسلت وعكفت على الاشغال بالزراعة والتجارة . وماذا لاقيت امامي يا سادتي حدث ان كانت لنا زراعة في بلد بعيد عن مركز املاكنا وكانت تحت نزاع بيننا وبين آخرين وكلٌّ يسعى لوضع اليد على الاملاك بالقوة فارسل اليَّ اخوتي وانا حينئذٍ في بلدنا ان اسعفهم بثلة رجل من فلاحي بلدنا وكنت حينئذٍ خارجاً من بين اسوار هذه المدرسة بفوائد الآداب الصحيحة فارسلت احد خفراء البلد ليدعو لي الفلاحين وكان جاء في منهم واحد قابلتهُ بهذا السؤال

هل انت " فاضي " يا فلان ويمكنك ان تذهب لمساعدة اخوتي فكان كلٌّ منهم يجيبني كلاً فاصرفهُ ومضى على هذا الحال نصف النهار ولم اجد رجلاً يجيب طلبي . وكان بعض اقربائي يتهزأ بي على كيفية معاملتي لاولئك الفلاحين بالنطف والاباحة قائلين لو كان اخوك هنا لجمع الف رجل في ساعة وارسلهم رغماً عنهم الى حيث يريد — فضاقت نفسي عند ذلك ووقعت بين امرين اما خذلان اخوتي امام خصومنا واما اكراه الناس على غير ما يريدون . فاخترت مني عزيمة الفضيلة امام هذه التجربة وقلت لاقربائي اصنعوا ما تريدون . فطاروا الى بيوتهم لخفف مسئوليتي لدى ضميري . وفي الحال قام احد اقربائي واستصحب بعض الخفر وجمع بالقوة والاكراه مئة رجل وارسلهم في مركب محفورين ليقوموا بخدمتنا مكرهين

تأملوا يا سادتي مثال هذه التجربة الشديدة التي يلاقيها الشاب في طريق الآداب الصحيحة التي تزود بها من هذه المدرسة العظيمة وكيف ان مثل هذه الحادثة البسيطة اذا اذهلت البصيرة بالنتائج الكاذبة العاجلة عن استقصاء الحقائق البعيدة الآجلة يمكن ان تؤدي بصاحبها الى الاعتقاد بان الآداب الصحيحة التي يربى عليها التلامذة في المدارس لا تصلح الاَّ بين اسوار المدارس واما في اعمال العالم فلا — ان الآداب الصحيحة لا تصلح الاَّ بين الناس المتهذبين واما بين سواهم فلا

ثم اشتغلت في تجارة الغلال فاشتريت مرةً شفاهاً من رجل صنفاً من الغلال بثمن راجح من غير ان انقدهُ شيئاً من العربون وقبل ان استلم الغلال هبطت اسعار ذلك الصنف هبوطاً فاحشاً وكانت يومئذٍ عادة التجار مع الفلاحين ان يشتروا منهم غلالهم واذا هبطت الاسعار قبل استلامها تركوها لاربابها وان كانوا قد دفعوا شيئاً من العربون اخذوا بقيمته غلالاً وتركوا الباقي — اما انا فلم يسمح لي ضميري المدرَّب يومئذٍ على الآداب المدرسية السامية بان اجري مع الفلاح البائع على هذه العادة الغابة الخائفة الجائرة التي يمقتها الضمير والعقل — فطلبت الرجل البائع رغماً عن معارضات كثيرة من اصحابي واستلمت منهُ البضاعة فانذهل من هذه المعاملة الجديدة العادلة الغريبة في وقتها . ومن حسن الحظ لم القَ هذه المرة الخيبة التي لاقيتها في حكايتي الاولى مع الفلاحين لان الاسعار غلت بعد ذلك فربحت من تلك البيعة عوضاً عن الخسارة المنتظرة . فمن الحادثتين البسيطتين اللتين ذكرتهما ترون ان متخرجي المدارس لا بد وان يلاقوا في سبيل آدابهم مرةً مهاوي تهوي بهم الى حضيض الضعف والخيبة فترهص عظم آدابهم الصحيحة وتوهن عزم اخلاقهم فيكبون لوجوههم كبوة المنهوك الخائر واخرى يرون فيها من الخير فتشور فيهم نهضة الادب فينهضون وهكذا يتراوحون

بين الخذ ورد ودفع وخفض لا يسلمون يوماً من المؤثرات والفواعل المتخالفة التي تتجاذب اميالهم وعواطفهم تارةً الى القوة وطوراً الى الضعف تارةً الى الطيب وطوراً الى الخبيث تارةً الى الامل وطوراً الى اليأس حتى يستقروا على الحالة الثابتة التي تكون عنوان سيرتهم وحياتهم خيراً ام شراً

اما اخباري كذي فن فاني قد قضيت في فن المحاماة زهاء اربع عشرة سنة رأيت في خلالها التجارب الكثيرة والعقبات المختلفة التي تصادم الآداب الصحيحة في طريقها. فكم من مرة تعرض على المحامي الصادق الامين دعاوى خاسرة فيصح لاربابها بالكف عنها اذ يرى الخسارة في جانبهم فيعدّون ذلك منه عجزاً وضعفاً. ويلاقيهم غير الصادق من المحامين فيفتح لهم ابواباً وهمية للربح والنجاح والناس من طبعهم ميالون حتى الى سراب الامل فيعرضون عن الصادق الامين الى اوهام الخداع فيجد المحامي الامين نفسه في زمن من الازمان مهملاً لا عمل له. وكم من مرة يطلب ارباب الدعاوي من المحامي الاديب ان يوافقهم على زورهم وبهتانهم فينفر منهم ويستنكف فيعدّونه ضعيفاً قليل الحيلة. وكم من مرة يدخل للمحامي الاديب في دعاويه معتقداً انها في جانب الحق وما يلبث ان يجد نفسه بعد السير فيها واقفاً عوناً وساعداً للزور والبهتان على الحق الصراح. وكم من مرة يرى بأمّ لغلبة الحق بالباطل بالحيلة والتفنن فيقع بين جذب الحيلاء والاعجاب وبين مطالب الضمير الحي

والخلاصة يا سادتي ان العوارض كثيرة في سبيل الآداب الصحيحة والتجارب عديدة تحوم حول الناس في اشغالهم ولكن الاختبار الطويل سيفي فني اراني ان الناصح بالاخلاص والحق المولّى عنه في بداءة عمله ان حافظ على مبدإه ولصق بالحق الى منتهاه لا يلبث ان يصير كعبة القصّاد ومنارة الارشاد فيجني من ثمار الصدق والاخلاص ما عزّ وطاب من الثروة والجاه والنفوذ والصيت الحسن والسعادة بأكملها

واراني ان المحامي الذي يتخذ جانب الحق له شعاراً يصير ملجأ اصحاب الحق فيكون النفوذ والنجاح حليفه

واراني ان الناجحين بالايهام والاكاذيب والغش والخداع هم كما قال النبي داود كالعصافة التي تذريها الريح نهايتهم الفشل والهلاك

واراني ان الضمير الحي سراج منير من يريد ان يهتدي به في سبيل التجارب المظلمة الى منارة الحق الساطعة

وبالاختصار اراني انه يمكن لكل ذي فن ان يجعل الآداب الصحيحة له شعاراً وان

يقول في الختام مع اللورد ارسكن " اني اجتهدت في فعل كل ما حثني عليه ضميري تاركاً النتيجة الى الله فلم اندم على ذلك ولم يلحقني منه اذى ضرر بل وجدته طريقاً للنجاح والغنى والمجد وسادرّب اولادي فيه ". والتاجر والصانع والامير والمأمور والمزارع والمأجور يمكنه ان يقول هذا القول الصادق

نعم هكذا هكذا ايها الاخوان الاعزاء ايها التلامذة الادباء الذين قلبتم صفحات النظريات وقضيتم اطيب العمر فيها حتى لم يعد لكم من عذر ان حدتم عن تلك القواعد والاصول الشريفة التي تعلمتموها يجب ان تضعوا امام عيونكم قول اللورد ارسكن حتى اذا سرتم في طريقه الامين ورأيتم تلك الخيرات العزيزة على جانبي ذلك الطريق تفيض من صدوركم اناشيد الحمد والشكر لله تعالى وتقولون مع اللورد ارسكن قوله المذكور . نعم يا سادتي في الآداب طريق السعادة والفلاح في العالم لمن يخوض غمرات التجارب بقلب شديد العزم متشبثاً ببدإٍ غير مبالٍ بما يلاقي احياناً في بداءة الاعمال من الخيبة والفشل . ولسوف يأتي زمن تنتشر فيه وسائل المعارف والتهذيب في اطراف المسكونة واقاصيها ويعلم الناس قاطبة ان الآداب الصحيحة هي علة السعادة والغنى ونجد فيردون مناهلها العذبة ويمهدون لها السبل والطرق فتصير جبالها سهولاً ووعورها رياضاً ويأمن الانسان حينئذٍ شرَّ فيها ويأتي ملك الله العزيز بكماله باسطاً السعادة الحقيقية على الارض فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي لا يؤذون ولا يفسدون لان الارض تمتلئ من معرفة الرب

حينئذٍ يشدو كل انسان ويرنم مع النبي داود قائلاً طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الاشرار وفي طريق الخطاة لم يقف وفي مجلس المستهزئين لم يجلس لكن في ناموس الرب مسرته وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً فيكون كشجرة مغروسة على مجاري المياه التي تعطي ثمرها في اوانه وورقها لا يذبل وكل ما يصنعه ينجح

نطلب منه تعالى ان يهدينا جميعاً الى سبل الآداب الصحيحة ويبسط بركاته العظيمة على العالم حتى يتمتع الناس جميعاً بالسعادة والسرور والسلام آمين

عدد شعر الرأس

يقال ان الانسان الاحمر الشعر متوسط ما في رأسه ٣٠٠ ٣٨ شعرة فقط وهو اقل تعرُّضاً للصلع من غيره . والانسان الاسود الشعر متوسط ما في رأسه ١٠٥ ٠٠٠ شعرة . والانسان الاشقر الشعر متوسط ما في رأسه ١٥٠ ٠٠٠ شعرة وهذا الشعر اذا جُدِل ضفيرة واحدة حملت ثمانين رطلاً قبل ان تنقطع وذلك يساوي قوة خمس مئة رجل